٦- رسالة البيان عن حقيقة الإيمان

- ٦ -

رسالة البيان عن حقيقة الإيمان

كتب بها رضي الله عنه إلى أبي أحمد عبد الرحمن بن خلف المعافري الطليطلي المعروف بابن الحوات [١] . رضي الله عنه

[٩٠ ب] بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله

قال الفقيه الحافظ أبو محمد علي بن حزم رضي الله عنه :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين . وعلى آله الطيبين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته الفاضلين . وسلم تسليما كثيرا وبعد . فإنه وردني يا سيدي وأخي كتابك ، أكرمُ كتبِ الأحبة في الله عز وجل . وحمدت الله تعالى عز وجل على ما أدى إليه من صلاح حالك . وأورد عليّ صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الحسن [٢] ـ أكرمه الله ـ من خبرك ما أبهجني ، وملأ نفسي سروراً ، فلن تزال الدنيا بخير ، ما دام مثلك مرفوعَ اللواء ، معمورَ الفِناءِ . وحمدت الله عز وجل على ما ذكرته فيه من حسن معتقدك لي ، فهذا الذي يلزم بعضنا لبعض . فنحن غرباء بين المتعصبين على من سلَّم لهم دنياهم ، ليسلمَ له دينُهُ . ووقفتُ على قولك فيه : إنه لولا خوفُ المُشَغِّبين ، وما دُهينا [٣] به من ترؤس الجاهلين ، لكتبتُ أقوالك ومذاهبك وبَثَثْتُها [٤]

---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد بن خلف ، أبو أحمد المعافري الطليطلي : كان إماماً مختاراً يتكلم في الحديث والفقه والاعتقادات بالحجة ، قوي النظر ، ذكي الذهن سريع الجواب بليغ اللسان وله تواليف جيدة ومشاركة قوية في الأدب والشعر لقيه الحميدي تلميذ ابن حزم بالمرية . وتوفي قريباً من سنة خمسين وأربعمائة وقيل سنة ٤٤٨ وقد أوفى على الخمسين (انظر جذوة المقتبس رقم : ٥٩٠ ، ص : ٢٥٢ وبغية الملتمس رقم : ٩٩٧ والصلة : ٣٢١) .

(٢) يعرف بابن الكتاني وقد ذكر الحميدي (الجذوة : ٣٥) أنه كان ذا مشاركة قوية في علم الأدب والشعر ، وله تقدم في علوم الطب والمنطق وكلام في الحكم ورسائل وكتب معروفة . ولابن حزم صلة وثيقة به واستشهاد ببعض أقواله وعنه أخذ المنطق والفلسفة . وهو صاحب كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ؛ وقد ترجمت له في المقدمة وذكرت هنالك مراجع ترجمته . .

(٣) ص : ذهبنا .

(٤) ص : تبثها .

في العالم ، وناديتُ عليها كما يُنادَى على السلع .

١ ـ فاعلم يا أخي ـ وفقنا الله وإياك ـ أن خوفك المشغبين لا يكفُّ عنك غَرْبَ أذاهم ، لو قدروا لك على مَضَرَّةٍ ، وأن كَشْفَكَ الحقَّ وصَدْعَكَ به لا يُقدِّمُ إليك مؤخَّراً عنك أتخشون الناس﴿ فالله أحَقُّ أن تَخْشَوهُ إنْ كنْتُمْ مؤمنين﴾ (التوبة : ١٣) . يقول الواحد الأول خالقنا لا إله إلا هو ﴿ فلا تخافوهم وخافونِ﴾ (آل عمران : ١٧٥) .

٢ ـ يا أخي : اجتهدْ لربك ، وادعُ إليه وخَفْهُ في الناس ، يَكْفِكَ الله تعالى أمرهم ، ولا تخفهم فيه ، فيدعك وإياهم ، وأعوذ بالله ، قد سبق القضاء بما هو كائن فلن يردَّهُ حِيلةُ محتال ، وكائنْ بالموتِ قد نزل ، فتركتَ [1] مَنْ تُداريهم مسرورين بذهابك ، لا ينفعونك بنافعة . واذكر قولَ نبيك محمد عليه السلام لعليّ رضي الله عنه [2] « لأن [٩١/أ] يهديَ الله بهداك رجلاً واحداً خير لك من حُمْرِ النَّعَم » .

٣ ـ ولقد أضحكني قولك : إنك علمت من مذهبي أني أُفْصِحُ بكلٍّ من قال مقالةً ، فخشيتَ أن أُفْصِحَ باسمك فيما لم تَقُلْه ، فمعاذ الله أن أفصح عنك أو عن غيرك ، إلا باليقين المحض ، وأما إذا علمتُ أن الأخ من إخواني يكره أن أُفصحَ عنه بمقالة يقولها ، فهي مدفونة خلالَ الشغاف ، لا سبيل إلى تحريك لساني بها بيني وبين نفسي ، بحيث يمكن أن يسمعني سامع ، فكيف أن أبُثَّها ؟ وأما أنا فلست أكره أن تبثَّ عني ما أقوله على حسبه .

٤ ـ وأما قولك : أما تقصد الآن إلى أن لا يؤثر عنك قول إلا حتى تستخير الله تعالى فيه كثيراً ، وتصحح نيتك في ذلك ، فَحَسَنٌ جداً وحالٌ لا ينبغي لأحـــدٍ تَعَدِّيها [3] .

٥ ـ وأما قولك : حتى إذا بلغْتَ إلى حدِّ الحسبة والصبر ، إن كانت محنةٌ ، تناولتَ الأوكدَ فالأوكدَ ، فحالةٌ أريدُ ألا تتصوَّرَها ولا تتمثلها فإنها مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ ، وتذكَّرْ قَوْلَ العامة : فلان يحبُّ الشهادة والرجوعَ إلى البيت ؛ مع أني أرجو الكفاية من الله عز وجل والحمايةَ ؛ واذكر قوله ووعده الصادق المضمون عندي إذ يقول

(١) ص : فتركب .

(٢) في الجامع الصغير (٢ : ١٢٢) لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت .

(٣) ص : يعديها .

تعالى﴿ ولينصرَنَّ الله مَنْ ينصُرُهُ إنَّ الله لقويٌّ عزيز﴾ (الحج : ٤٠) . والله يا أخي ، ولله الحمد . لقد حماني تعالى ، وما أعْدَمَني قطّ من مُخَالِفي مقالتي مَنْ يذودُ عَنِّي ويذبُّ عن حوزتي أشَدَّ الذبِّ . وإني لأدْعو الله لهم مَدَى عمري . أولهم القاضي أبو المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن بشر [1] وأبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرءوف [2] [صاحب] الأحكام [3] ـ نَوَّرَ الله وجهيهما ، وجازاهما بأفضل سعيهما . فلقد قام لي منهما ما يقوم من الأخوين المحبين . ثم أبو العاصي حكم بن سعيد [4] . غفر الله ذنبه ، وتغمد خطاياه ، وقارضه بالحسنى فإنه أبلى في جانبي أتم بلاء ؛ وما قصَّرَ يونس بن عبد الله بن مغيث شيخنا [5] نضَرَ الله وجهه ، وأكرم مُنْقَلَبَه ولقد [٩١ ب] بلغ أبو جعفر أحمد بن عباس [6] من ذلك الغايةَ القصوى . واستئثار الأجر الجزيل والذكر الجميل . برّد الله مضجعه ، ولقّاهُ الرَّوْحَ والريحان ؛ ثم الكاتب الفاضل ذو المآثر العالية والفضائل السامية والأعمال الزاكية والسعي المحمود . أبو العباس [7]

---

(١) ترجم له الحميدي في الجذوة رقم : ٥٨٨ . ص : ٢٥١ وابن بشكوال في الصلة : ٣١٩ ـ ٣٢١ وابن سعيد في المغرب : ١ : ١٥٨ والنباهي في المرقبة العليا : ٨٧ . ولاه علي بن حمود القضاء سنة ٤٠٧ فبقي فيه إلى آخر سنة ٤١٩ وكان ماهراً بالحكومة مع حلاوة اللفظ وحسن الخط . وعابه ابن حيان مؤرخ الأندلس بالشعوبية وبقعوده عن الرحلة إلى المشرق ، وإليه كتب ابن حزم قصيدته البائية التي يفخر فيها بنفسه وأثنى عليه بالعلم . وقد توفى أبو المطرف عام ٤٢٢ هـ .

(٢) كان صاحب أحكام المظالم ، واسع العلم حاذقاً بالفتوى صليباً في الحكم مؤيداً للحق . وتوفي سنة ٤٢٤ (الصلة : ٤٨٩) .

(٣) ص : الحكم .

(٤) هو الحكم بن منذر بن سعيد ، وقد مرَّ حديث عنه في طوق الحمامة . وكانت وفاته سنة ٤٢٠ (الصلة : ١٤٦) .

(٥) انظر ترجمته في الجذوة : ٣٦٢ والبغية ص : ٤٩٨ والصلة : ٦٢٢ والمرقبة العليا : ٩٥ : وكان يونس من أعيان أهل العلم أخذ عنه ابن حزم وابن عبد البر ، وعرف بالزهد والميل إلى التحقيق في التصوف وألف فيه كتباً وقد تولى القضاء بعد أبي المطرف ، وبعد أن أثنى عليه ابن حيان بمعرفة الحديث والشهرة في الخطابة والتقدم في علم اللسان والآداب ورواية الشعر ذمه لأنه لم يحج . ولأنه كان يحب الدنيا ويزدلف إلى الملوك ـ توفي يونس سنة ٤٢٩ هـ ـ .

(٦) المشهور بهذا الاسم والكنية في زمان ابن حزم أبو جعفر أحمد بن عباس الأنصاري وكان كاتباً بارعاً في الفقه ، معروفاً بحبه الشديد لجمع الكتب وبخله بها . بلغ مرتبة الوزارة ثم قتله باديس بن حبوس سنة ٤٢٧ هـ . (انظر الإحاطة ١ : ١٢٩ والذخيرة ١/٢ : ٦٤٣) .

(٧) أبو العباس هذا هو أحمد بن رشيق الكاتب الذي بسق في صناعة الرسائل وشارك في سائر العلوم ومال إلى الفقه والحديث وقدمه الأمير مجاهد العامري على كل من في دولته . وكان يجمع العلماء والصالحين ويؤثرهم ويصلح الأمور جهده وقد رآه الحميدي تلميذ ابن حزم وروى عنه (انظر الجذوة : ٢٠٧ ص : ١١٤) وهو الذي قرب ابن حزم أثناء إقامته بميورقة . وفي مجلسه جرت المناظرة بين ابن حزم وأبي الوليد الباجي .

المشغوف بالعلم وتقديم الحسنات كشغف غيره بالأموال واللذات . صديقك ومحبك ومؤثرك ، لا زالت عليه من الله واقية في دنياه ، فلقد هيأه وَيَسَّرَهُ لمنافع عباده . وأجرى الصالحات على يده كثيراً . وألحقه إذا دعاه بنبيه في أعلى عليين ، آمين . وبالله المستعان، وعليه الاتكال .

٦ ـ أما قولك : إنك تتناول في خلال ما تتناول بضروب من السياسة فحسنٌ جداً ، جعلنا الله وإياك من الداعين إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة .

٧ ـ ومن أعجب ما مرَّ بي منذ دهر قولك في كتابك : إنه بلغك عني أني أقول عنك إنك تقول : لا إدام إلا الخل ؛ من أجل حديث النبي صلى الله عليه وسلم : « نعم الإدام الخلّ » (١) . فاعلم ـ يا أخي ـ أنه قد ساءني هذا جدا أن أكونَ عندك بهذا المحل ، وأقلُّ ما أقول لك : والله الذي لا أقسم بسواه ـ ولو علمتُ أعظمَ من هذا القسم لأقسمتُ به لك ، وأعوذ بالله أن أعتقد في العالم قسماً غيره . فكيف مثله . فكيف أشد منه ـ إن كنتُ قطُّ سمعتُ هذه المقالة من أحد من خلق الله تعالى يحكيها لي عنك ، ولا رأيتها عنك في كتاب ، ولا طَنَّتْ على أذني حتى رأيتها في كتابك . فكيف أن أحكيها عنك ، فأستجيزَ الكذبَ البحتَ عليك ! حاشا لله من هذا . وليس هذا النصُّ من دليل الخطاب ، إنما كان يمكن أن يتأول على من يقول بدليل الخطاب : لا نعم الإدام إلا الخل . وأما القطع بأن لا إدام غيره ، فليست هذه القضية مقتضيةً هذه الأخرى ؛ فبالله إلا ما أعرضتَ عن كلِّ شريرٍ يريد أن يُسْمِعَ الناس سبَّهم على ألسنة [٩٢/أ] غيرهم .

٨ ـ ورأيت المُدْرَجَةَ ووقفتُ عليها . أسأل الله أن يجعلنا وإياك ممن يستمع القرآن والقول فيتبع أحسنه ، والجملة التي أوردتَ من قولي فيها فهو قولي أيضا . وكذلك وقفتُ على الفصولِ التي ذَكّرتَني بها ، أحسن الله جزاءك على ذلك . فهكذا تكون الناس .

٩ ـ أولها قولك : انظر هل فرض الله تعالى النظر أم لا (٢) فجوابي إنه لم يفترض قط في التوحيد وصحة النبوة وجميع الشرائع ، النظر ؛ بل إنما افترض في كلٍّ ذلك اتباع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقط . ولو فرضه الله تعالى فيها ، ما جاز قبولها

(١) انظر حديث « نعم الإدام الخل » في صحيح مسلم ٢ : ١٤٤ وفي سنن أبي داود (أطعمة : ٣٩) والنسائي (إيمان : ٢١) وابن ماجه (أطعمة : ٣٣) والجامع الصغير ٢ : ١٨٨ .

(٢) تحدث ابن حزم عن هذه المشكلة في الفصل (٤ : ٣٥) وعقد لها فصلاً عنوانه هل يكون مؤمناً من اعتقد الإسلام دون استدلال ، وهو في موقفه من إنكار الاستدلال والنظر يرد على الطبري والأشعرية .

من أحد حتى يقرر على الوجه الذي صحَّ به عنده التوحيد والشريعة كلها . فتثبت يا أخي ها هنا ، فإن نظري ونظرك لا يحكمان على ميراث الأمة عن نبيها صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما افترض على الناس في الشرائع كلها شيئاً واحداً وهو الائتمار لما جاء به الوحي من عند الله تعالى فقط . فهذا الوجه خاصة ، هو الذي افتُرِضَ على الناس عَقْدُهُ . والقولُ به ، والعمل . وأما طرق الاستدلال التي عُنِيَ بها المتكلمون فما افترضها الله تعالى قط على أحد .

وأقولُ قَوْلَةً أقدِّمُ لك فيها مقدمةً تُصلحُ بعضَ ما يمكن أن ينكره منكرٌ من قولي وهي : إني أريد [أن] أقول قولاً يعينني بالله من أن أقوله مفتخراً أو ممتدحاً . لكن سياق الكلام والحجة أوجب أن أقوله وهو : إني ولله الحمد لستُ بمبخوسِ الحظِّ من هذا العلم ، أعني علمَ أهل الكلام وطريقهم في الاستدلال [1] فيظنّ ظانّ أني إنما قلت ما قلتُ عداوةً لعلم جهلته ، لا ، ولكنَّ الحقَّ لا يجوز أن يُتَعَدَّى . وأما قول الله تعالى﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق من شيء﴾ (الأعراف : ١٨٥) وقوله﴿ أو لم يتفكروا﴾ وقوله﴿ أو لم يرَ الذين كفروا أنَّ السمواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً فَفَتَقْناهما وجعلنا من الماءِ كلَّ شيءٍ حي ، أفلا يؤمنون﴾ (الأنبياء : ٣٠) الآية ؛ [٩٢ ب] وسائر الآيات التي في معنى هذا ، فإنك يا أخي إن تدبرتها . كفينا التعب ؛ وهي أنها كلها بلفظ الحض لا بلفظ الأمر ، وهذا قولي نفسه . وأما الأمر بالاعتبار فليس من هذا الباب ، إنما هو الأمر بالاتعاظ بمن هلك ممن عصى الله تعالى فيخاف العاصي له عز وجل مثل ذلك فقط . وليس شيء من هذا يوجب أنه لا يصحّ لأحدٍ اسمُ التوحيد وحكمه عند الله تعالى إلا بأنْ يكونَ اعتقاده إياه من طريق الاستدلال .

١٠ ــ وأما قولك : انظر الأدلة المحرمة للتقليد [2] فأنا أريد أن تتفقد وأن تتدبر كلامي . فإنك تجده صفراً من مدح التقليد . ومملوءاً من ذمه ؛ وليس في قولي إن من اتفق له معرفةُ الحقِّ بمعنى اعتقاده من جهة التقليد فإنه من أهل الحق عند الله تعالى

---

(١) ذكر ابن حزم كيف بقي سنين كثيرة لا يعرف الاستدلال ولا وجوهه ثم تعلم طرقه وأحكمها (الفصل ٤ : ٣٨ ــ ٣٩) قال : فما زادنا يقيناً على ما كنا بل عرفنا أننا كنا ميسرين للحق ... لكن أرانا صحيح الاستدلال رفض بعض الآراء الفاسدة التي نشأنا عليها فقط كالقول في الدين بالقياس .

(٢) انظر المحلى : ٦٦ في تحريم التقليد وإبطاله : وخلاصة رأي ابن حزم أن التقليد هو أخذ المرء قول من دون رسول (ص) ممن لم يأمرنا الله عز وجل باتباعه قط ولا بأخذ قوله بل حرم علينا ذلك ونهانا عنه . وأما أخذ المرء قول الرسول فليس تقليداً بل هو إيمان وتصديق واتباع للحق .

وإن كان مذموماً في تقليده لا في اعتقاده الحق . ما يوجب عليّ أني أبيح التقليد ، وأنا لم أبحه قط ، لا في التوحيد ولا في غيره . إنما هو عندي كإنسان خرج ليسرقَ فاتّفقَ له أن وجد متاعاً له قد كان سُرِقَ منه فأخذه : هو مصيبٌ في اعتقاده الحقَّ ، مسيء في تقليده . وتأمل القرآن كله لا تجد فيه إلا الحضَّ على البحث لا على إيجابه ألبتة ، وإنما تجد فيه ذمَّ التقليد إذا وافق الباطل فقط . فهنالك ذمَّ الله تعالى اتباع الآباء والسادة والكبراء والأحبار ، وهنا ذمَّه الله على كل حال . وأما إذا وافق الحقَّ فقد قال الله عز وجل﴿ والذين آمنوا وأتْبَعْنَاهم ذُرياتِهِمْ بإيمانٍ ، أَلحقْنَا بهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ (الطور : ٢١) ، وأمر الله تعالى باتباع ما أجمع عليه أولو الأمر منا بخلاف أولي الأمر إذا اختلفوا، فبهذا جاءت النصوص ولا مدخلَ للنظر على ما جاء به كلام الله تعالى . (١)

١١ ـ وأما قولك لي أن انظر ما في الفطرة من خطأ الاقتصار على الدعوى . فلم أحمدْ ذلك أصلاً ، ولا أمرتُ به ، وإنما قلت وأقول إن [٩٣/أ] المقلِّدَ مذمومٌ في تقليده . فإن أصاب الحقَّ بتوفيق الله عز وجل له إليه ، فهو من أهل الحق . وإن حصل عليه بطريق غرر ، وهما عملان متغايران ، وُفِّقَ في أحدهما ولم يُحْمَد (٢) في الآخر . وهذا جواب قولك لي : إذ كلُّ قائل مدع ، فيجب أن لا يؤخذ بقول أحدٍ من المختلفين والقائلين أو يؤخذ بقول جميعهم وكلا الأمرين خطأ . فتأمل يا أخي ، إنك ألزمتني ما لا يلزمني وأنا لم آمر قط بالتقليد : فاضبط عني : إنما قلت التقليدُ مذمومٌ فإن أدّى إلى باطل فصاحبه إما كافر إذا وافق كفراً ، وإما فاسق إذا وافق خطأ في الشريعة ، وإما مخطئ فيه إذا وافق الصواب بالبخت (٣) . ولم أقلْ قط إنه واجب ، أو يؤخذ بقول مدعٍ ، ولا أنه جائز فضلاً عن أن يكون واجباً ، ولا أنه ممكن أيضاً ؛ ولا قلت قط إنه جائز أن يؤخذ فيقول قائلاً ما بلا دليل ، فكيف أن أوجبه ! لكن قلت إن القول بالحقِّ واجبٌ لأنه حق .

١٢ ـ وأما قولك لي : فكان عندك جائزاً أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم : قلدوني في قولي ، فجوابي إنه عليه السلام لم يقله ، ولو قاله لوجب ولكنه لم يقله ، لكن قال : قولوا لا إله إلا الله وإني رسول الله ، فهذا واجبٌ بيقين عند الله تعالى وعند

(١) وأتبعناهم قراءة أبي عمرو ، وذرياتهم على الجمع منصوباً فيهما وهي قراءة البصريين وابن عامر وقرأ الباقون بغير ألف على التوحيد ، والقراءة المتداولة « واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم » .

(٢) ص : يجهد .

(٣) ص : بالبحث .

كلّ مسلم . ولم يَقُلْ عليه السلام قط ، ولا أحَدٌ من الخلفاء بعده ، إنه لا يلزمكم هذا القول أن تقولوه إلا حتى تستدلوا وتناظروا وتعرفوا الجوهرَ من العرض ، ومعاذ الله أن يكون هذا واجباً ويغفله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتتفق الأمة الفاضلة كلها على إبطاله وإغفاله ، حتى جاءت المعتزلة والأشعرية (١) ، وهما الطائفتان المعروف (٢) قدرهما عند المسلمين . فها هنا قِفْ يا أخي وقفة ، وتأمله بقلب سليم ، فإنه أظهر من كل ظاهر .

١٣ ـ وأما قولك لي : لو جاز أن يُقَلَّدَ لجاز أن يُقَلَّد غَيْرُهُ ، فهذا لا يلزمني لأنه الحق ، وغيره [٩٣ ب] هو المبطل الباطل . فمن سكنت نفسه إلى قوله عليه السلام ، ولم تنازعه إلى دليل وقَبِلَهُ وقَالَهُ ، فقد وفق للخير والهدى ؛ ومن نازعته نفسه ولم تقنعْ إلا ببرهان ، فهذا هو الذي يلزمه النظر والاستدلال ، ويلزمنا البيان له والمحاجَّة والمجادلة بالتي هي أحسن ، وإقامة البرهان عليه . وهكذا فَعَلَ عليه السلام ، فإنه قبِلَ الإسلام ممن أسلم بلا اعتراض ، ومن حاجَّهُ أتاه بالآيات ، ودعاه إلى المباهلة وتمني الموت وأقام عليه حجةَ البرهان الواضح . فتأملْ هذا تجده كما أقول لك ، ودع عنك بالله حماقات أهل السفسطة المسخرين لحماقاتِ كتب ابن فورك (٣) والباقلاني (٤) ، وما هنالك ، فما سرَّني انتساخك لكتابه المعروف « بالدقائق » وستقف عليه إن شاء الله تعالى وتتدبره ، فلتعلمْ أنَّ الكاغد مخسورٌ في نسخه ، بل المدادُ على تفاهة قدره .

١٤ ـ وأما قولك : أما الرسولُ فلا تجبُ طاعته إلاّ بعد معرفةِ الله ضرورةً ، إذ من جهل (٥) المُرْسِلَ وقدره ، وما يلزم من طاعته ، لم يلزمه اتّباعُ مُرْسَلِهِ ولا طاعتُهُ ، هذا

---

(١) انظر ما سماه ابن حزم شنع المعتزلة في الفصل (٤ : ١٩٢) وهو فصل من كتاب سماه النصائح المنجية من الفضائح المخزية والقبائح المردية من أقوال أهل البدع . ثم أضافه إلى كتاب الفصل ؛ وأما الأشعرية فقد هاجمهم في مواضع شتى من كتابه (وانظر بخاصة الفصل ٤ : ٢٠٤) وقد عدهم من المرجئة وأكثر ما يعيبهم عنده قولهم إن الإيمان عقد بالقلب وإن أعلن المرء الكفر بلسانه وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية ... إلخ قال : وأما الأشعرية فكانوا ببغداد وبالبصرة ثم قامت لهم سوق بصقلية والقيروان وبالأندلس ثم رق أمرهم والحمد لله رب العالمين ؛ وهذا يدل على انحسار المذهب أيام ابن حزم .

(٢) ص : المعروفة .

(٣) هو محمد بن الحسن انظر ترجمته في طبقات السبكي ٣ : ٥٢ وتبيين كذب المفتري : ٢٣٢ وابن خلكان ٤ : ٢٧٢ ومرآة الجنان ٣ : ١٧ وإنباه الرواة ٣ : ١١٠ والوافي ٢ : ٣٤٤ والشذرات ٣ : ١٨١ وكانت وفاته سنة ٤٠٦ هـ .

(٤) توفي القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني سنة ٤٠٣ هـ . انظر ترجمته في تبيين كذب المفتري : ٢١٧ وتاريخ بغداد رقم : ٢٩٠٦ وابن خلكان ٤ : ٢٦٩ وترتيب المدارك ٤ : ٥٨٥ والوافي ٣ : ١٧٧ والديباج : ٢٦٧ وابن كثير ١١ : ٣٥٠ والمنتظم ٧ : ٢٦٥ .

(٥) ص : جعل .

ما لم يدفعه عقل ، فمعرفة الله مُقَدَّمَةٌ على معرفة رسله ، هنا انتهى قولك . وهذا قول يجب أن تتأمله ، فليس على ما ذكرت ، ولا كانت معرفة الله واجبةً قبل الرسل . قال الله تعالى : ﴿ وما كنّا مُعَذِّبين حتّى نَبْعَثَ رسولاً ﴾ (الإسراء : ١٥) . فإذا سقط العذاب [١] عن كلٍّ من لم يأته رسولٌ بنصٍّ كلام الله تعالى ، بيقين ندري أن كل ما لا يعذب الله تعالى عليه ولا ينكره فليس واجباً بل إنما وجبت على الناس معرفةُ الله بدعاءِ الرسل عليهم السلام . إليه تعالى فقط ، لا قبل ذلك .

يا أخي تَدَبَّر قولك في وجوب معرفة الله تعالى قبل الرسل ، والوجوبُ فعلٌ يقتضي موجباً بضرورة العقل ، فقل لي : من أوجب المعرفة ؟ فإن قلت إن الله تعالى أوجبها . قلنا لك : فمن أين [٩٤/أ] زعمت أن الله تعالى أوجبها ؟ فإن قلت : بضرورة العقل ، ادعيت على العقول ما ليس فيها [٢] ، وجمهورُ الناس من أصحاب الحديث والفقهاءِ والخوارج والشيعة متفقون مصرِّحون بأن معرفة الله تعالى لا تلزمُ إلا بمجيء الرسل ودعائهم إلى الله تعالى فقط . وإن قلتَ : إن العقلَ أوجب ذلك فرضاً ، فهذا محالٌ ظاهر ، والعقلُ لا يُحَرِّمُ شيئاً ولا يوجبه ، والعقلُ عرضٌ [من] الأعراض محمول في النفس ومن المحال أن تحكم الأعراضُ وتوجب وتشرِّع ؛ وإنما في العقل معرفة الأشياء على ما هي عليه فقط من كيفياتها ولا مزيد . وهذا باب قد أحكمته غاية الإحكام في صدر كتاب « أصول الأحكام » [٣] . فتأمل هذا الفصل تجده كما قلت .

ولا تُحْسِنَنَّ [٤] ظنَّك بكلٍّ ما تجده لأولئك المهذِّرين السوفسطائيين على الحقيقة ، المتسمين بالمتكلمين الذين يأتونك بألف كلمة من هذرهم [٥] يُنْسِي آخرها أولها ، وليست إلا الهذيانَ والتخليطَ وقضايا فاسدة بلا برهان ، بعضها ينقض بعضاً .

١٥ ـ وأما قولك : مع أن ظواهر الشريعة دلَّتْ على لزوم المعرفة والعلم بالله عزَّ

---

(١) ص : الكلام .

(٢) قارن هذه بفكرة ابن الطفيل في حي بن يقظان فهي تعتمد على الاستدلال النظري لمعرفة الله تعالى ـ دون رسول ـ وابن حزم ربما لم ينكر هذا ولكنه ينكر وجوب المعرفة .

(٣) هو كتابه الإحكام في أصول الأحكام . وفيه حديث مفصل عن مهمة العقل (١ : ١٣ وما بعدها) وخلاصة رأيه أن في العقل الفهم عن الله تعالى ومعرفة صفات المدركات . لكنه لا يوجب أن يكون الخنزير حراما أو حلالا أو أن تكون صلاة الظهر أربعا وصلاة المغرب ثلاثا . أو أن يقتل من زنا وهو محصن وإن عفا عنه زوج المرأة وأبوها . ولا يقتل قاتل النفس المحرمة عمدا إذا عفا عنه أولياء المقتول ... الخ (المصدر المذكور ص ٢٨) .

(٤) ص : تحسبن .

(٥) غير واضحة في الأصل .

وجل ، من ذلك قوله ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا هو ﴾ (محمد : ١٩) والمقلد غير عالم ولا عارف ، فإنما المأمور بهذا العلم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المأمور بعقب هذا الأمرِ بالاستغفار للمؤمنين ، وهو عليه السلام قد علم الله تعالى بأعظم البراهين ، من مشاهدة الملائكة ، ومشاهدة السموات سماءً سماءً ، ومكالمة الله تعالى ، ورؤية المعجزات على يده ، فهو المأمور بالعلم حقاً ، وأما سائر الناس فلم يؤمروا قطُّ بهذا ، وإنما أمروا بأن يقولوا شهادةَ الإسلام بألسنتهم ويعتقدوها بقلوبهم ، فهذا هو الذي أمروا به حتى لا تجد أنهم أمروا بغير ذلك أصلاً . فمن شَرِهَتْ نفسه إلى العلم المحقق فليطلب الاستدلال ، كما فعل إبراهيم عليه السلام [٩٤ ب] في إحياء الطير ، ومن لم تنازعه نفسه ، فلو فعل ذلك لكان حسناً ؛ ومن لم يفعل ، لم يخرج بذلك من كونه من أهل الحق إذا وفقه الله تعالى .

١٦ ـ وأما قولك : وأريد أن تتأمَّل قولك : لا يلزم من معرفة الباري تعالى والنبوة إلا [1] ما دعاهم إليه نبيهم المختوم به الرسل من صحة الاعتقاد : هل [2] الذي دعاهم إليه من الاعتقاد هو المعرفة أو غيرها ؟ فإن كانت المعرفة ، فلا تكون إلا بتقديم البراهين وإلا كانت غير معرفة . وإن كانت غَيرهَا فالمعرفة لم تُفْرَضْ ، وإنما فُرِضَ غيرها ؛ ويجب أن تعرف ما ذلك المفترض ، وفي إيثار هذا الكلام ما فيه ـ فنعم يا أَخي قد تأملته جداً وأنا ثابت عليه ، والحمد لله رب العالمين . وأنا أكرره فأقول : لم يفترض الله تعالى على الناس قط [إلا] [3] الإقرار بألسنتهم بدعوة الإسلام واعتقاد تحقيقها بقلوبهم فقط ؛ وأما المعرفة التي لا تكون إلا ببرهان فما كُلِّفوها قط . وأما من عبَّر [4] عن صحة الاعتقاد بالمعرفة فإن الجواب عن هذا دخول في استعمال الألفاظ المشتركة التي استعمالها أسُّ البلاء . لكن نقول لك : إن كنت تعبرُ بالمعرفة عن صحة الاعتقاد للحق ، فالناس مُكلّفُونَ هذا . وإن كنت تعني بقولك المعرفة : العلم المتولد عن البرهان فما كلِّفَ الناسُ قط هذا . وهذا علم الأنبياء عليهم السلام ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وجميع أُمته بعده حتى حدث من تعرف ، فأتوا بقول إذا حققته لزم التقصير البين للنبي صلى الله عليه وسلم ولأئمة المسلمين بعده .

---

(١) ص : إلى .

(٢) ص : هل هو .

(٣) زيادة لازمة .

(٤) ص : غير .

١٧ ـ وأما قولك لي : وأرغبُ أن تتأمل قولك « حاشا من كان عَقْدُهُ أنه لو كان أبوه يهودياً أو نصرانياً لكان يهودياً أو نصرانياً . فهذا ليس عقده بصحيح [١] . ثم قلت أنت : وهل من لم يكن عارفاً بالأدلة ولا واثقاً بها وكان مقلداً إلا على ذلك ؟ وهل يرتفع أحدٌ من هذا العقد الذي ليس بصحيح عندك [٩٥/أ] حتى يعتقد الدين . لا لأن آباءه اعتقدوه ولا أن قومه اعتقدوه إلا عن معرفة بالبراهين الصحيحة ومعرفة الحق مجرداً ؛ وإنما لحظت هذا وما اتصل به . لأنَّ [٢] الدليل الذي اقتصرت عليه ليس بصحيح عندك ؛ فإن الرسول لم يقتصر [٣] على دعواه فيما دعا إليه ولا رضي عمن [٤] قلده ـ هذا نص قولك ـ فاعلم يا أخي أن كلَّ من اعتقد الحق عن غير استدلال فليس على ما ذكرت . بل أكثر الأمة والحمد لله ممن لا يدري يَتَهَجَّي لفظة « استدلال » فكيف أن يعرفَ معناها . تجده لو خُيِّرَ بين أن يعذَّبَ بأنواع العذاب ، إلى انقضاء عمرِ الدنيا ، وبين أن يفارِقَ الإسلام لتخيَّر بلا شك أنواعَ العذاب ، ونجده لو كفر أبوه وأهلُ بلاده بعد أن تحقق عَقْدُ الإسلام في قلبه . لاستحلَّ دمَ أبيه وولده وأهلِ بلده . وهذا أمر تشاهده بنفسك من أكثر العوامّ الذين أنت تدري أنهم لم يعرفوا الدينَ قطُّ من طريق الاستدلال . وأما من تعتقد أنه لو كَفَرَ أهْلُ بلده لكفر هو معهم . فهذا عند الناس كلهم كافرٌ غيرُ مصحّحٍ لاعتقاده . فتأملْ هذا تجده كما أقول لك أيضاً . والله أعلم .

١٨ ـ وأما قولك لي : إن الرسول عليه السلام لم يَقْتَصِرْ على دعواه فيما دعا إليه ولا رضي عمن قلده . فكلامٌ غيرُ محقق . بل ما اقتصر قط عليه السلام إلا على دعائه فقط ، إلا من طالبه بآية . فحينئذ أتاه بها . وأما من لم يطلبه بها فما قال له عليه السلام قط : لا تؤمنْ حتى ترى آية . وما زال عليه السلام راضياً عمن اتبعه ورضي به . وإن لم يطلبه بدليل على ما أورد بعد هذا إن شاء الله تعالى . فصحَّ أن الدليل الذي استدللتُ به في غاية الصحة . وأنه عيانٌ مشهورٌ منقول نقلَ الكوافِّ . لا مُعْتَرَضَ فيه . والحمد لله رب العالمين .

١٩ ـ وأما قولك في الخبر الصحيح [٥] : « وأما المنافق أو المرتاب [٩٥ ب] فهو

---

(١) ص : صحيح .
(٢) ص : بأن .
(٣) ص : وأن الرسول يقصر .
(٤) ص : من
(٥) أورد البخاري هذا الحديث في كتاب العلم وكتاب الكسوف وكتاب الجمعة . وهو بصورته هذه من حديث أسماء في سؤال القبر : فأما المؤمن أو قال الموقن ـ شك هشام ـ فيقول (إذا سئل عن النبي) هو رسول الله =

الذي يقول سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلته ، وأن المؤمنَ هو الذي يقول جاءنا بالبيناتِ والهدى » فخبرٌ صحيح وهو حجتي عليك لأنه صلى الله عليه وسلم إنما حكى القول « سمعت الناس يقولون شيئاً فقلتُهُ » عن منافق أو مرتاب ، وإنما أتيتُ أنا على محققٍ بقلبه مثبت ليقينه نافر عن الشك والجحد كل النفار إلا أنه فتح [1] الله عز وجل له في ذلك الحق بالبخت لا عن استدلال ، وهذا بعينه هو الذي يقول بقلبه ولسانه في الدنيا كما نقول ، إذا مات ، جاءنا بالبينات والهدى . فتأمل هذا تجده كما قلت لك ، والحمد لله رب العالمين .

٢٠ ـ وأما قولك لي : ويجب أن تنظر في القول إنه عليه السلام لم يدعُ أحداً إلى غير هذا عموماً ، وإذا لم يدعُ إليه فهو تَكلّف ، وإذا كان تَكلّفاً فكيف يرجعُ إليه من اختلج في صدره شيء أو كيف يجده ؟ فنعم يا أخي ما دعا عليه السلام إلى غير هذا ، ومن العجب أن يكون دعا إلى غير هذا واتفقت الأممُ على كتمان هذا وطيِّه . أترى هذا يا أخي ممكناً ؟ حاشا لله من هذا ، ونعم ، هو تكلُّفٌ حسن ممن لم تنازعْهُ نفسه إليه . وأما تعجبك بقولك : فكيف يرجع إليه من اختلج في صدره شيء أو كيف يجده ؟ أما علمت أن شربَ الدواء والكيِّ تكلف ؟ وأن من احتاجَ إليهما لِدَفْع ضَرَرٍ حلَّ به وجب عليه أن يرجعَ إليهما ؟ فأيُّ عجب في هذا ؟ وأنا لم أحتجَّ عليك بهذا التنظير ، وإنما أريتك أن هذا الذي أنكرتَ وجودَهُ موجودٌ في العالم ، وإنما طلب الاستدلال لتعلّم القرآن كله ، وتعلّم الكتابِ ليس فرضاً لكنه تكلّفٌ حسن ممن تكلفه ، وهما فرضٌ على من قصد ضَبْطَ الديانةِ للناس ، والاستكثارَ من الخير والعلم فقط .

٢١ ـ وأما قولك : فإن قيل هو مندوبٌ إليه ، ولذلك كان له عليه أجر ، قيل فجائز لجميع الأمة تركه ولا إثم عليها في إغفاله . وإذا كان هذا أدى إلى أن يكون جميع الشرع [٩٦/أ] بأيدينا دعوى ، وفي هذا ما لا يخفى ، فاعلم أنه مندوب إليه كما قلنا ببرهان أَنَّهُ لم يأت به قط أمرٌ من عند الله تعالى ولا من رسوله صلى الله عليه

= هو محمد صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبينات والهدى فآمنا وأجبنا واتبعنا وصدقنا فيقال له نم صالحاً قد كنا نعلم إنك لتؤمن به . وأما المنافق أو قال المرتاب ـ شك هشام ـ فيقال له ما علمك بهذا الرجل فيقول لا أدري . سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت (وفي نسخة فقلته) . وانظر ابن ماجه (زهد : ٣٢) والترمذي (جنائز : ٧٠) وحجة ابن حزم في هذا الخبر أن الرسول قال : المنافق والمرتاب ولم يقل غير المستدلّ فاللفظ لا يسعف خصوم ابن حزم . ثم إن المنافق والمرتاب مقلدان للناس لا محققان . والتقليد شيء غير الاستدلال .

(١) غير معجمة في الأصل .

وسلم ، وأما قولك فجائز لجميع الأمة تركه ولا إثم عليها في إغفاله ، فنعم هو كذلك ، وهذه صفة ما لم يأت به أمر من عند الله تعالى ، ولو [1] أن الأمة كلها التقت بالقبول وصحة العقد ، ولم يكن فيها منازع ولا كافر ، ما احتيجَ إلى الاستدلال ألبتة ، إذ لم يأت بإيجابه أمرٌ من الله عز وجل ولا من رسوله صلى الله عليه وسلم .

٢٢ ـ وأما قولك : إذا كان هذا ، أدى إلى أن جميع الشرائع بأيدينا دعوى ، وفي هذا ما لا يخفى ، فإن الله تعالى حضَّ على الاستدلال كما قلنا ولم يفترضه ، وعلَّمنا إياه ولم يوجبْ تعلمه على أحد ، وأوجب علينا مناظرةَ المعاندين بالبراهين ؛ وأنا يا أخي لم أُنْكِرْ هذا قطّ ، وإنما قلت إن من لم تنازِعْه نفسه إليه ، وأنِسَ إلى اعتقاد صحة الإسلام والإقرار به فهو مسلم صحيح الإسلام عند الله تعالى ، وإن المعتقد لذلك [2] عن استدلال أفضل فألزمتني ما لم يلزمنيه قولي [3] .

٢٣ ـ وأما قولك : فينظر فيما فرض الله تعالى من تدبر القرآن وما فيه من الدلائل . فتدبر القرآن فرض ، ومعنى تدبره فهم معاني ألفاظه . وكيف لا يكون فرضاً وهو بيان ما افترض ، وقد تدبرناه ولله الحمد فلم نجد فيه أنه لا إسلام لمن لا يعتقده من طريق الاستدلال ولا وجدنا فيه أن معرفة الله تعالى فرض قَبْلَ الرسل ، وهذا قولنا والحمد لله ، وهنا انتهى قولك وما اقتضاه من جواب .

* * *

٢٤ ـ ثم أنا أبتدئك بما يلزم بعضنا لبعض من بيان الحق وتعاطي البراهين ، فأقول لك وبالله تعالى التوفيق :

قبل كل شيء أريد أن تنظر في كلامي بعينٍ [4] سليمةٍ من الإعراض ومن الاستحسان معاً ، وبنفس بريئةٍ من النفار والسكون معاً ، لا [5] كما ينظر المرء بما

---

(١) ص : ولولا .

(٢) ص : كذلك .

(٣) قابل هذا بقول ابن حزم (الفصل ٤ : ٤٠) : ونحن لا ننكر الاستدلال بل هو فعل حسن مندوب إليه محضوض عليه كل من أطاقه لأنه تزود من الخير . وهو فرض على كل من لم تسكن نفسه إلى التصديق ..... وإنما ننكر كونه فرضاً على كل أحد . لا يصح إسلام أحد دونه . هذا هو الباطل المحض (وانظر أيضا وقفة ابن حزم عند هذا الموضوع في الفصل ٥ : ١١٠) .

(٤) ص : بغير .

(٥) ص : لكن .

لم يسمعْهُ قط ، فيسبق إليه منه قَبولٌ [٩٦ ب] يُسَهِّلُ عليه الباطل أو نفارٌ يوعّر عليه الحق . فمن هذين السعيين تاه أكثر الناس وفارقوا المحجة .

٢٥ ـ فأقول لك يا أخي : كان إسلامُ خيارِ أهل الأرض بعد النبيين عليهم السلام كخديجة وعائشة أُمَّي المؤمنين ، وأبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، وبلال ، وزيد بن حارثة ، وخالد بن سعيد بن العاصي ، وعمرو بن عَبَسَة ، وعثمان بن عفان ، والزبير وطلحة ، وزينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية ، بنات النبي صلى الله عليه وسلم . فهل ذكر قط أحدهم أو جميعهم أو غيرهم عنهم أنهم لم يُسْلموا حتى سألوا آيةً وطلبوا معجزة ، وعرض عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم برهاناً ؟ هل كان أكثرُ من أنْ دعا عليه السلام خديجةَ إلى الإسلام وأبا بكر عليهما الرضوان ، فلم تكن لهما كَبْوَةٌ ولا تردد ؛ وأما عائشة وعلي وزينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية فهل كان إسلامهم إلا على تدريب الكافل والأبوين ولا مزيد ؟ وسكتٌّ عن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما ، لأنه قد قيل إنهما لم يسلما إلا بعد معجزة رأياها . فلعمري يا أخي إن قال قائل : إن هؤلاء المذكورين لم يسلم منهم أحد إلا عن معجزة طلبها فَعُرِضَتْ عليه ليقولنَّ ما يشهدُ قلبُهُ بأنه كاذب فيه ثم لا يبقى أحد في العالم لم يدرِ شيئاً من السير والأخبار إلا كَذَّبَهُ ودرى أنه كاذب .

٢٦ ـ تفكَّر يا أخي كيف أسلم النجاشي وباذان والمنذر بن ساوى وعباد [١] وجيفر ابنا الجلندى وذو الكلاع وذو ظليم وذو مران وذو زود وهؤلاء ملوك بلادهم [٢] ؛ وكيف أسلم الستة من الأنصار ، والاثنا عشر ، والثلاثة وسبعون الذين هم خيار أهل الأرض . هل طلب واحد منهم معجزة أو رغب آية ؟ تفكر في هذا ، ودعنا من استبشاع مخالفة هذيان المتكلمِين [٣] الذين لم ينتج الله تعالى على أيديهم إلا افتراقَ الكلمة ، وتكفيرَ المسلمين بعضهم بعضاً . [٩٧/أ] ألم يصحَّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال [٤] « دعوا لي صاحبي فإن الناس قالوا كذبت ، وقال أبو بكر صدقت » ولذلك سمي الصديق .

---

(١) سماه المقريزي في الامتاع عمرا واسمه في جوامع السيرة والفصل : عياذ ؛ وفي سيرة ابن سيد الناس : عبد .

(٢) انظر جوامع السيرة : ٣٠ وما بعدها وكذلك الفصل ٢ : ٨٥ .

(٣) ص : هذان المتكلفين .

(٤) في صحيح البخاري (٥ : ٥) إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق وواساني بنفسه وماله فهل أنتم تاركولي صاحبي . وانظر حديثاً مقارباً في مجمع الزوائد ٩ : ٤٤ .

٢٧ ـ فتفكر يا أخي في نفسك : كيف كان إسلامك مذ بلغت مبلغَ التكليف وتوجَّهَ إليك الخطابُ من الله عز وجل ، عن استدلالٍ كان منك من تلك الليلة ؟ فهذا بعيدٌ جداً ، وإن كان استدلالاً بعد ذلك فكيف تعرف نفسك بين بلوغك إلى وقت استدلالك ، أترى تلزم نفسك حكم الكفر ؟ معاذ الله من هذا .

٢٨ ـ ثم أقول لك : الناسُ أربعة : فإنسان استدلّ فأدَّاه استدلاله إلى حقٍّ مأجورٌ مرتين ، وآخر استدلَّ وبحث ونظر ، فأدَّاه ذلك إلى دُهْرِيَّةٍ أو تَبَرْهُمٍ أو مَنَانِيَّةٍ أو بعضِ أنواع الكفر ، فهذا كافر مخلّد في النار إن مات على ذلك . أو أدّاه إلى قول الأزارقة وأصحاب الأصلح أو بعض البدع المهلكة ، فهو فاسق . وآخرٍ قلَّد فاتفق له الحقُّ فهو من أهل الحق ، وهكذا عوامُّ أهْلِ الإسلام كلهم . وآخر قلَّد فأداه ذلك إلى الباطل ، فهو إما كافر وإما فاسق .

٢٩ ـ وتثبَّتْ فيما قلتُ لك من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الناس كلهم ، فهو برهان ضروري منقولٌ نَقْلَ الكوافّ ، لا يشكّ فيه مسلمٌ موحد ولا ملحد في أنه عليه السلام لم [1] يقلْ لأحدٍ دعاه إلى الإسلام : لا تسلمْ حتى تستدلَّ . وهذه كتبه إلى كسرى وقيصر والملوك ، وذكر رسله إلى البلاد ، ما في شيء منها ولا في بعوثه وغزواته إيجابُ استدلال ، فإن جاز عندك أن يتفقَ الناس كلهم على كتمان هذا ، فأعيذُكَ بالله من أن يجوزَ هذا عندك .

٣٠ ـ ثم اعلم يا أخي أن الفرقة المحدثة لهذه المقالة ، فرقةٌ أنت تدري أنها غير مرضيَّةٍ عند جميع أئمة الهدى قديماً وحديثاً ، وأنهم مطعونٌ عليهم في أديانهم مظنون [2] بهم السوء في اعتقادهم . وبرهانُ ذلك أنهم أجسرُ الناس على عظيمة تقشعرُّ منها الجلود وعلى إطلاق العظائم على الباري عز وجل [٩٧ ب] بلا مبالاة ، ولم يزالوا عند جميع الأمة مرذولين إلى أن يُبْلَغَ [3] إلى الذين لقينا منهم . ولقد قال لي بعض إخواني كلاماً أقوله لك ـ قال : أسألك بالله هل بلغك أن أحدا أسلم على يَدَيْ متكلّمٍ من هؤلاء المتكلمين ، واهتدى على أيديهم من ضلالةٍ ، وهل أسلم من أسلم واهتدى من اهتدى إلا بالدعاءِ المجرَّد الذي مضى عليه السلف ؟ فوالله يا أخي ما وجدتُ لقوله جواباً ، بل ما وجدتهم أحدث الله تعالى على أيديهم إلا الفرقةَ والشتاتَ والتخاذلَ وافتراقَ

---

(١) ص : لا .

(٢) ص : فيظنون .

(٣) ص : إلى يبلغ .

الكلمة والجَسْرَ على كلِّ طامةٍ وعظيمة وتكفير المسلمين بعضهم بعضاً . وهذا أمر مشاهد . ثم هم في خلال ذلك أبعدُ الناس عن المجيء ببرهان حق . وأكثرهم سفسطة وتخليطاً واضطراباً وتناقضاً .

٣١ ـ فإن قال قائل : قد ذممتَ التقليد . وأبو بكر وخديجة وعائشة وعلي وخالد ابن سعيد وعمرو بن عبسة والأنصار رضي الله عن جميعهم مقلدون أَفَهُم مذمومون [١] في تقليدهم ؟ قلنا وبالله تعالى التوفيق : لسنا نقول هذا . ولكنا قد بينا في غير هذا الموضع أن التقليد هو لمن اتبع من لا [٢] يؤمر باتباعه فهذا هو المذموم في تقليده وإن أصاب الحق . وأما من اتبع من افترض الله تعالى عليه اتباعه . وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فليس يسمى مقلداً . بل هو مُوَفَّقٌ مطيع لله تعالى . محسن . سواء [٣] اتبعه في عقدة الإسلام أو فيما دون ذلك من الاعتقادات أو العبادات والأحكام . وقد بيَّنا أيضاً في غير هذا الموضع أنه قد تقعُ الضرورةُ بخبر الواحد ويصح به العلم المتيقن . وكلُّ هؤلاء وقع لهم العلم الحق واليقين [٤] الضروري بإخبار النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالإسلام وبصحة نبوته . هذا ما لا شك فيه عندنا ألبتة . ولا يجوز غير هذا ألبتة .

ولقد كانوا أعلمَ وأفضلَ وأجلَّ وأسلم وأتمَّ من أن يستجيبوا لقول قائل . بلا برهان [٥] لولا أن الله تعالى أنزل السكينة عليهم كما قال الله عزَّ وجل : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عن المؤمنين إذْ يُبايعونَكَ تحتَ الشَّجَرةِ فعلمَ ما في قلوبهم [٩٨/أ] فأنزلَ السكينةَ عليهم وأثابَهُمْ فَتْحاً قريباً ﴾ (الفتح : ١٨) وكما قال تعالى ﴿ حَبَّبَ إليكم الإيمانَ وزيَّنَهُ في قلوبكم . وكَرَّهَ إليكم الكُفْرَ والفسُوقَ والعصيانَ أولئكَ هم الراشدون . فضلاً مِنَ الله ونعمة . والله عليم حكيم ﴾ (الحجرات : ٧) .

٣٢ ـ وأيضاً فقد صحَّ برهانٌ واضح أن الله تعالى خَلَقَ كلَّ شيء في العالم من حامل ومحمول . ولا ثالث لهما في العالم . فإذ ذلك كذلك . فهو تعالى خالق الإيمان في قلوب المؤمنين . فمن خلق الله تعالى الإيمان في قلبه ولسانه فهو مؤمنٌ صحيحُ الإيمان . سواء خلقه في قلبه ولسانه دون استدلال أو خلقه باستدلال ؛ وكذلك الكفر أيضا :

---

(١) ص : فهم مهمومون .

(٢) ص : مما .

(٣) ص : وسواء .

(٤) ص : اليقين .

(٥) ص : فلا معنى .

من خلق الله تعالى الكفر [في قلبه] أو خلقه على لسانه فهو كافر محض .

٣٣ ـ وأيضاً فقد يستدلُّ الدهرَ كله من لا يوفَّقُ للحقِّ كما استدل الفيومي [١] والمقمس وأبو ريطة اليعقوبي واذرباذ الموبذُ [٢] وأبو علي يزدان بخت المناني [٣] . ثم مِن فرق المسلمين : هشام بن الحكم [٤] وعلي بن منصور [٥] والنظام وغيره . فبعضهم يُسِّرَ للكفر وبعضهم يُسِّرَ للإيمان ولضلال البدعة معاً .

٣٣ ـ وقد يَدَّعي المجتهدون في نَصْر أقوال مالك وأبي حنيفة أنهم مستدلون جهدهم وقد ملأوا الدنيا صحائفَ سمجة . ولم ييسروا إلا للخطاء في أكثر أقوالهم . وقد ييسر الله تعالى للإيمان والسنة من لا يستدل . فالكلُّ فعلُ الله تعالى . فمن يُسِّرَ للحقّ . فهو محق كيفما اعتقده . ومن يُسِّرَ للباطل فهو مبطلٌ كيفما اعتقده .

٣٤ ـ فإن قلت : بأي شيء يَعْرِفُ الموفَّقُ للعلم الصحيح أنَّ هذا حقٌّ وأن هذا باطل ؟ قلنا : بالبراهين . وهذا ما لا نخالفك فيه ، إلا أن عدم الاستدلال بالبرهان لا يُخْرِجُ الحقَّ عن أنْ يكونَ حقاً في ذاته ولا الباطل عن أن يكون باطلاً في ذاته . والله تعالى يخلقُ الإيمانَ والكفر في قلوب عباده . وهم طبقات [٦] : فمنهم من يخلق الإيمان في قلبه ضرورةً بداءةً كما خلق الله في قلوبنا معرفة [٩٨ ب] أن الكلَّ أكثرُ من الجزء . وأن الحلوَ حلوٌ والمرَّ مر ، وهذا أرفع درجات الإيمان ، وهذا إيمان الملائكة والأنبياء عليهم السلام ؛ ومنهم من خلق الإيمان في قلبه ضرورةً عن تصديقِ مخبرٍ كإسلام من

---

(١) قال ابن النديم (الفهرست : ٢٣) : « ومن أفاضل اليهود وعلمائهم المتمكنين من اللغة العبرانية ويزعم اليهود أنها لم تر مثله الفيومي . واسمه سعيد ويقال سعديا وكان قريب العهد وقد أدركه جماعة في زماننا » وله كتب عدة .

(٢) هو أذرباذ بن ماركسفند . موبذ موبذان . عاصر ماني وناظره بحضرة الملك بهرام بن بهرام في مسألة قطع النسل وتعجيل فراغ العالم . فانقطع ماني وقتله بهرام على الأثر (الفصل ١ : ٣٦) .

(٣) في الأصل : مروان . وانظر الفهرست (تجدد) : ٣٩٨ . ٤٠١ حيث ذكر أن يزدان بخت ظهر في خلافة المأمون فخالف في بعض أصول طائفة المهرية من المانوية ومالت إليه شرذمة منهم . وقد أحضره المأمون من الريّ وناظره المتكلمون وأفحموه . وعرض عليه المأمون أن يسلم فلم يفعل ؛ ولم يذكر ابن النديم كنيته . وهنالك من رؤسائهم أبو علي سعيد وأبو علي رحا . فلعلّ هنا خلطاً بين اثنين منهم .

(٤) انظر ترجمة هشام بن الحكم في الفهرست : ١٧٥ ـ ١٧٦ . واعتقادات الرازي : ٦٤ وتبصير الأسفراييني : ٩٣ . ٧٠ . وهو زعيم الحكمية أو الهشامية من فرق الشيعة . ويدين بالتجسيم .

(٥) هو الحلاج . انظر أخباره في صلة الطبري . وتجارب الأمم . ونشوار المحاضرة والمنتظم وفيما جمعه ماسينيون من أخباره وأقواله . وانظر أيضاً ديوانه الذي جمعه ماسينيون في المجلة الأسيوية : ١٩٣١ .

(٦) ص : طبقتان .

ذكرنا من الصحابة ، رضي الله عنهم ، الذين صدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في خبره ، ومنهم من خلق الإيمانَ في قلبه ضرورةً عن استدلالٍ وبرهان برؤية المعجزات أو نقلها إليه ، وهذه صفة إيمان المستدلين منا ، ومنهم من خلق الإيمانَ في قلبه بغير سبب ، وهذه صفةُ إيمان المحققّين من العوام . ولا إيمانَ لمن خرج من هذه الطباق .

وكذلك خلق الله تعالى الكفر في قلوب عباده . فمنهم من خلقه تقليدا ، ومنهم من خلقه في قلبه حسداً للعرب وللنبيّ صلى الله عليه وسلم . ومنهم من خلقه في قلبه اتباعاً لهوىً وقع له أو سكوناً إلى الشك ، ومنهم من خلقه في قلبه استدلالاً ببعض الأدلة الفاسدة ، ومنهم من حكم الله تعالى عليهم بالكفر وإن اعتقد الإيمانَ وعمل به وأعلنه ، لكنْ خرَقَ الإجماعَ في بعض أقواله كمن أقر بنبي بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، أو كذَّبَ بآية من القرآن أو بشريعة مجتمعٍ عليها ، أو عملَ عملاً يكون به كافراً ، إن شاء الله تعالى .

فهذا بيانُ جميع هذه المسألة ، والحمد لله رب العالمين . ثم السلام عليك أيها الأخ المحمود ، ورحمة الله وبركاته .

تمت بحمد الله عز وجل
وصلى الله على سيدنا محمد
وسلّم تسليماً كثيراً
والحمد لله وحده